

فنية الاسترسال وخصوصية استحضار الفنون التشكيلية

في رواية "حائط المبكى" لعز الدين جلاوي

The Art of Transcendence and the Specificity of Evoking
Fine Arts in the Novel "The Wailing Wall" Izz al-Din Jalawji

كمال محمودي¹، سمية قندوزي²

¹ جامعة الجزائر 2 (الجزائر)، مخبر الخطاب الصوفي

mah.kamel18@gmail.com

² جامعة الجزائر 2 (الجزائر)، مخبر الخطاب الصوفي

guendouzisouso@outlook.com

تاريخ الاستلام: 2023/11/12 تاريخ القبول: 2024/02/26 تاريخ النشر: 2024/03/03

ملخص: تعتبر رواية حائط المبكى لعز الدين جلاوي من بين أهم الأعمال الروائية التي تمررت على أصول الرواية والسرد التقليدي، فوجد الكاتب يستثمر بعض الفنون في قلبه السردى ليجعلها أرضاً خصبة تستوعب جميع الفنون، نركز في دراستنا هذه على فن الرسم الذي كان مولعاً به بطل الرواية، من ثم الكشف عن هذا التراسل وجماليته وغايته في خلق عوالم أدبية وفنية جديدة.

الكلمات المفتاحية: التراسل، الفنون، الرسم، الرواية، لوحات تشكيلية.

Abstract: The Wailing Wall novel by Izz al-Din Jalawji is considered among the most important works of fiction that rebelled against the origins of the novel and traditional narration, so we find the writer investing some arts in his narrative template to make it a fertile ground that accommodates all the arts. Then revealing this correspondence, its aesthetics, and its purpose in creating new literary and artistic worlds.

Keywords: correspondence, art, drawing, novel.

المؤلف المرسل: كمال محمودي

1. مقدمة:

تعتبر قضية تراسل الفنون في الرواية من بين القضايا التي شغلت اهتمام النقاد والدارسين، وذلك نظراً للتحوّلات التي شهدتها الرواية الحديثة والتي ضربت عرض الحائط كل تقاليد الأنواع الأدبية ونقائنها وتحاول هذه الدراسة مقارنة هذا التراسل ومحاورته في إبداع، فرواية "حائط المبكى" استثمر فيها الروائي فنون مختلفة في صياغة قلبه السردى نذكر منها فن الرسم هذا الفن الذي يشترك مع الرواية في أنّ كليهما فن تشييد فضائي وبالتالي فقد حقق الروائي بذلك زحزحة جمالية على مستويات متعدّدة ومن هنا يطرح السؤال: ما العلاقة التي تجمع الرواية بالرسم الفضائي؟ وكيف أثر فن الرسم في الرواية في شكله الفني؟

2. الرواية والرسم بين الماهية والخصوصية:

أثيرت قضية العلاقات بين الفنون في أواخر الستينات وأصبح موضوعاً مهماً لاسيما ضمن التحوّل الذي شهدته الرواية الحديثة، هذا الموضوع الشائك الذي اختلفت نظرة النقاد والباحثين حوله، فهناك من يرى بنقاء الجنس الأدبي وأنه لا يصح أن تتشابك فيما بينها، وهناك من ينادي بأهمية هذا التداخل نظراً للقيم الفنية والدلالية التي ينجم عنه.

فالمتتبع لنشأة الأجناس الأدبية وتاريخها نجد أنّ فكرة الأجناس الأدبية مرت بعدة مراحل تاريخية طويلة لتصل إلى ما يسمى بـ "نظرية الأجناس الأدبية" بدءاً من اليونان عن أفلاطون وتلميذه أرسطو من خلال كتابه "فن الشعر" والذي يعدّ من بين أوائل النقاد الذين عالجوا فكرة الأجناس الأدبية والملاحظ أنّ أرسطو سعى إل الفصل التام بين الأنواع الأدبية ففصل بين التراجيديا والكوميديا، واستمر الحال حتى تمرّد سيبستيان مرسيه على هذه التقاليد الصارمة ورأى " أنّ على الجدران الفاصلة بين الأنواع الأدبية أن تهدم وبالتالي يولد عصر جديد تتمازج فيه الأنواع الأدبية والأجناس الأدبية." (حماد، 2023، صفحة 23)

فنية الاسترسال وخصوصية استحضار الفنون التشكيلية في رواية "حائط المبكى"

ومع مرور الوقت وفي إطار الانفتاح والتفاعل بين الأدب والفنون بدأ يظهر للعيان هذا التلاقح حيث يقول د صباحة أحمد علقم: "وأودّ أن أشير إلى أمر أسهم في زيادة الجدل حول إشكالية النوع الروائي، وهو انفتاح الشكل الروائي على باقي الأشكال الأدبية الأخرى واستفادته من مفردات الواقع الذي يفرزه. " (العلقم، دت، صفحة 22)

فالرواية نوع متفتّح على الأنواع الأدبية الأخرى هذا الانفتاح بإمكانه خلق نوع جديد. حيث تعدّ " أهم الأنواع الأدبية وأكثرها انتشارا في العالم وأقدرها على تمثيل الواقع وتمثله بخطاب أدبي يتسم بالجمالية والرقي، والرواية اليوم أمّ الآداب وجامع نصوصها لما تحويه من شمولية وقدرة فنيّة على استيعاب مختلف الأنواع والأجناس الأدبية والفنيّة والخطابيّة الأخرى. " (السامرائي،، 2016، صفحة 33)

فلقد أثبتت الرواية بصفتها جنسا مراوغا يمكنها أن ينفتح على مختلف الأنواع الأدبية والمعرفية الأخرى، ذلك أنّها لا تملك قوانين ثابتة تحكمها لا تتزحزح فيها فهي ترفض رفضا قاطعا الحدود بين الأجناس الأدبية والفنون، هذه الخاصية التي انفردت بها مكّتها من التّربع على عرش الأدب العالمي، هذا الانفتاح الذي جعل الرواية يطلقون عليها اسم النّص الجامع أو النّص لقد انفتح عز الدين جلاوي في روايته " حائط المبكى" على تقنيات جديدة بالنسبة للكتابة الروائية، فقد كانت هذه الرواية مغايرة عن الروايات التقليديّة حيث تعالقت روايته مع فنون أخرى أبرزها فن الرّسم، فهو يؤمن بأنّ الرواية جنس أدبي مازال قيد التّشكل لذلك نوع في دائرة التخيل الفنيّ، لذا سنحاول سبر أغوار هذا العمل الإبداعي والوقوف عند هذا التّلاقح بين الرواية والفنون الأخرى التي عمد إليها الروائي وبالتالي الإجابة على التّساؤلات المطروحة .

تدور أحداث رواية حائط المبكى لعز الدين جلاوي حول فنّان تشكيلي موهوب، طالب في مدرسة الفنون الجميلة يغرم هناك بفتاة سمراء جميلة، يسحر

بجمالها وبعشقها للفن، فهي فنّانة تشكيلية مثله، تنطلق أحداث الرواية بجريمة قتل راح ضحيتها فتاة في العشرينيات هذه الحادثة كانت له بمثابة منعرج في حياته فهو يعيش حالة نفسيّة متغيّرة تغبّر الأماكن التي تشهدها الرواية، فالمتتبع لأحداث الرواية يجد أنّ حب الكاتب للسمراء جعله يتزوجها وينجب منها لكن مرضها حال دون ذلك وانتهى بالفراق ليدخل الفنّان التّشكيلي في موجة حزن أثرت على نفسيته وصحته ليبحث عن بديل يعوضه آلام فقدان حبيبته السمراء فلم يجد إلا العالم الافتراضي.

فالروائي اعتمد نهاية مفتوحة لينهي بها روايته لكي يترك ذلك للقارئ يثير تساؤلاته مما يدفع فضوله ويحث مخيلته على النشاط، هذه النّهاية المفتوحة لا تكون بترًا عشوائيًا من طرف الروائي وإنّما تدخل في هندسة الكاتب لروايته. والملاحظ على رواية حائط المبكى هو تعالق الفن الروائي بالفن التّشكيلي وهذا ما جعل الروائي يفتح آفاقًا واسعة للرواية فنسج فضاءها عبر عوالم فنيّة متعددة.

إن المتتبع لأحداث الرواية يبدو بأنّ السارد لأحداث الرواية هو الشخصية المحورية نفسها، ممّا يوهم المتلقي بواقعية ما يرويّه السارد من أحداث، فتزيد في نفس القارئ نوعًا من التّشويق على متابعة أحداث الرواية وتظهر أهمية استعمال هذا الضمير أنا أيضًا في استطاعته الإفصاح عن مشاعر وأفكار الشخصية المحورية أمام المتلقي، ممّا يوضّح له معاناته في حياته طيلة أحداث الرواية وهذا ما يجعل القارئ يتعاطف معه.

4. بين سردية الرواية وفنية الرّسم في رواية حائط المبكى لعز الدين جلاوي:

تعتبر الرواية من بين أكثر الأنواع الأدبيّة التي أثبتت قدرتها على الانفتاح حيث نجدها تنهل من مصادر الأدب المتنوعة ونجدها تستعير من كل جنس ما يناسبها فالرواية "جنس أدبي عابر للأجناس بما انضوى عليه شكلها الفنّي من قدرة فائقة على الاحتواء والتّبدل، بسبب مساحة الحرّية المتوافرة في تقنية السّرد، وتفاعل

فنية الاسترسال وخصوصية استحضار الفنون التَّشكيلية في رواية "حائط المبكى"

عنصر البناء الفني للرواية مع الخصائص الفنيّة للأنواع الأدبية." (إسماعيل، 2020، صفحة 46)

فالنَّص الروائي أصبح منفتحاً على بقية الفنون، لذا أخذ يفيد من أساليب الشعر والمسرح والسينما والرسم والأسطورة، ممّا مكّنه بأن يكون أقدر الأجناس الأدبية، وأكثرها انفتاحاً وإفادة من هذه الفنون بالإضافة إلى قدرته على هضم أجناس أدبية أخرى وتمثّلها، ورواية "حائط المبكى" من بين الروايات التي تمرّد صاحبها على أصول الرواية والسرد التقليدي فنجد انفتاحها الظاهر على مجموعة من الفنون سواء كانت أدبية مثل الشعر أو غير أدبية كالرسم والموسيقى محاولاً بذلك بناء نص روائي جديد يعتمد على تبادل المزايا. يعدّ العنوان "العتبة الأولى في عتبات النَّص أو الجسر الذي يربط بينه وبين المتلقي، وهو بمثابة الكلمة السحرية التي تفتح لنا الأبواب للولوج إلى عالمه والكشف عن أسراه." (الدولي، 2016، صفحة 465)

فالعنوان هو عنصر أساسي في النَّص فهو بمثابة المفتاح الإجرائي يدخل من خلاله القارئ فمن خلاله تتضح جوانب ودلالات للنَّص الإبداعي لذا تعدّ عملية اختياره من أصعب وأهم أجزاء العملية الإبداعية سواء من خلال صياغته الدلالية والأدبية، وبالعودة إلى الرواية نجد أنّ الروائي عز الدين جلاوي اختار عنوان " حائط المبكى" والملاحظ على هذا العنوان أنّه عنوان مختصر ومركز وهو من بين شروط صياغة العنوان، وبمجرد سماعنا لهذا العنوان يتبادر إلى أذهاننا أنّه عنوان يشير إلى الاسم اليهودي لحائط البراق عند المسلمين.

حيث يرتبط عند هذا الأخير بقصة الإسراء والمعراج في التَّاريخ الإسلامي ومنه جاءت تسمية هذا الحائط نسبة للدابة التي ركبها الرسول صلّى الله عليه وسلم في حادثة الإسراء من مكة إلى المسجد الأقصى، حيث ربط البراق في حلقة على هذا الحائط الموجود في الجزء الجنوبي من السور الغربي للمسجد الأقصى الشريف، أمّا

بالنسبة لليهود فهم يعتبرونه أيضا مكان مقدس لهم، يتوجهون للصلاة فيه وفق طقوسهم الدينية التي تأخذ شكل البكاء والنواح زاعمين وجود جزء من هيكل سيدنا سليمان.

فالمتمعن في هذا العنوان نجده لا يعكس مضمون الرواية، فالروائي قد اختار هذه التسمية نظرا لأنه يعيش حالة نفسية متغيرة تغير الأماكن التي تشهدا الرواية، فهو يعيش حالة قلق ورعب وخوف من المستقبل فلا ملجأ له إلا الرسم ليخفف من روعه ويسكن آلامه "دوما كنت أتغلب على صعاب الحياة وخيباتها بالرسم، ألج محرابه لأتطهر من أدران الحياة ومآسها أصب في اللوحة كل آلامي آمالي كل أحلامي وانكساراتي أقضي الأيام بليالها في صومعتي هذه." (جلاوجي، 2020، صفحة 23)

فالرسم بالنسبة له ليس هواية وحسب فهو المنتفض الوحيد للألمه وعذابه وقدره التعس فمن خلال اللوحات التي يرسمها يعبر بها عن خلجات نفسه فالرسم بالنسبة له "أحاسيس ومشاعر وروح ترفعلك إل أعلى تفوص بك إلى الأعماق تكشف لك مجاهيل الحياة." (جلاوجي، 2020، صفحة 14)

ومن بين الفنون التي استعان بها جلاوجي في روايته "حائط المبكى" فن الرسم فبمجرد اطلاعك على مضمون الرواية تحس وكأن كاتبها رسّام من الطراز العالي، رسّام موهوب عالم بأسرار الرسم والفنون التشكيلية ذلك أنّ الفنان له القدرة أن يعبروا بتجمعات الخطوط والألوان عن انفعال نحو الواقع يكشف عن نفسه من حال الخط واللون." (عادل، 2017، صفحة 102)

فالأهمية النفسية لها علاقة وطيدة من خلال توظيف الألوان ودلالاتها بوصفه نوعا من الكشف عما يختلج النفس البشرية من أحاسيس لأنّ الخطوط والألوان بالنسبة إلينا ليست إلا علامات لحقائق مختبئة." (فتحي، 2016، صفحة 20)

فنية الاسترسال وخصوصية استحضار الفنون التشكيلية في رواية "حائط المبكى"

فيمكن من خلال الألوان أن يعبر الإنسان عن عواطفه ورغباته على اختلافها فهو بمثابة لغة تعبيرية لها جمالها وسحرها ويعكس نفسية صاحبه.

5. الرَّسْم بالكلمات:

تعتبر الرواية" فن تشييد فضائي شأنها شأن الرسومات والمنحوتات، وهكذا تستمد بعض أصولها من فن الرَّسْم والتَّصْوِير والنحت." (النصير، 2022، صفحة 42) فجلاوجي وصل حد أن يحول المشهد إلى لوحة فنيّة من خلال توظيفه للغة السردية وهذا ما لمسناه طيلة أحداث الرواية، حيث تتوالى تلك المشاهد التخيلية والصور البديعة التي تتمازج فيها الأجناس الأدبية وجعلها منفتحة متواشجة فيها هو ذا يصف سمراءه الجميلة في لوحة فنيّة تعكس حبّه للرَّسْم " سمرتها النَّظرة، عيناها السوداوان الواسعتان، وقد تغشاهما ذبول، حاجباها المعقوفان كخطاف أعياه التَّجديف في الفضاء البعيد، أهدابها الأشبه بجناحي فراشة، سوداء نادرة، شعرها الحالك الذي عصمته بخيط أبيض طويل، ابتسامتها البريئة التي تظلّ توزعها على كل من يحييها أو حتى يمرّ قريبا منها، شفتاها اللتان كانت تداعب بهما فنجان القهوة الساخن ملابسها الخريفية الأنيقة." (جلاوجي، 2020، صفحة 07)

فهو يصف حبيبته السمراء بكلّ تفاصيلها ممّا يجعل القارئ يتخيّلها أمامه بكلّ صفاتها. كذلك في وصفه للملاح القاتل الذي لم يغب عن مخيلته" كان طويلا مفتول العضلات متناسق الملامح، أميل إلى البياض، كل ملابسه سوداء، قميصه، سرواله، جاكاته، ضيعت عينيه خلف النظارة السوداء الكبيرة، عجبا حتى سيارته كانت سوداء هل يمكن أن يسمى السّفاح الأسود." (جلاوجي، 2020، صفحة 18)

ومن خلال هذا يتبيّن لنا قدرة الألوان على الإيحاء ورفد الصورة واكتساب دلالات معينة فالأسود يوحي بالشرّ والعنف على عكس الأبيض الذي يوحي بالصفاء والنقاء وكل الصفات الحميدة، وفي مقابل نجد الأسود يوحي بالشرّ والتّخفي كي لا يكشف، فله تأثير حتى في القلوب فهو رمز الموت والخوف فالملتبع لهذه اللوحات

السردية سواء في وصف سمرائه الفاتنة أو وصف السّفاح الأسود تحسّ وكأنّ الروائي مصور فوتوغرافي متمكن من عمله فهو يزخرف لوحاته السردية فيختار لها الألوان المناسبة.

يقول الروائي " لم تحمس لفتحها، رميتها جانبا، أحسستها تمور غيضا، وقد تحديت إغراءها وهممت أن أعود لإتمام لوحتي، استوت الفرشاة في يدي وعانقت عيناى تفاصيل اللون الأخضر العميق، الذي عانق في بعض أجزائه سوادا داكنا وحمرة قانية، لم تغادر الرسالة خيالي." (جلاوي، 2020، صفحة 32)

يبدو الروائي ملّما باختيار الألوان المناسبة تبعاً للوحة التي يريد تشكيلها، هذه التقنية التي استعارها من تقنيات الرّسامين الذين بدورهم يختارون الألوان التي تقتضيها الدّلالة التعبيرية وكذلك بالبعد الدّلالي للوحة الفنيّة، فتراضف الألوان يعطي تركيباً فنيّاً جميلاً، كما نجد الروائي ملم أيضاً بتقنية من تقنيات الرّسم ألا وهي الرّسم باستخدام اللّصق، وقد ظهر هذا النوع من الفن في بادئ الأمر في الصين ثمّ شاع في مختلف أنحاء العالم حتّى أضحى سمة من سمات الفن التّشكيلي " ظلّت تسدّ على الطريق إلى ملامح الصورة التي استعملت فيها هذه المرة تقنية اللّصق جريدة، وأعواد كبريت وسلّك نحاسي، وقطعة غيار سيارة علاها الصّدأ، كانت رغبة الاكتشاف أكبر منّي." (جلاوي، 2020، صفحة 32) فقد لجأ الروائي إلى استعمال تقنية الكولاج في الرسومات فهو يعتمد إلى إلصاق عدة أشياء قطع جريدة كانت أو أعواد كبريت أو أسلاك نحاسية فعملية القص واللصق تحدث صدعا على سطح العمل السردى .

صيغت لغة رواية " حائط المبكى " صياغة خاصة لتصوّر جوانب حياة الفنّان التّشكيلي والملاحظ أنّ هذه اللّغة هي لغة حمّالة أوجه تثير في نفس القارئ مجموعة من الاتصالات المختلفة مع معاني الكلمات، وهي ميزة من المميّزات التي تتمتع بها الرواية الحديثة، لقد رسم الروائي روايته باللّغة بطرق فنيّة مغرية بالإضافة إلى كونها

فنية الاسترسال وخصوصية استحضار الفنون التشكيلية في رواية "حائط المبكى"

تنهل من مختلف الفنون الأخرى على غرار فن الرّسم متجاوزا بذلك الرواية التّقليدية والبحث عن ملامح جديدة تميّزها، وهذا ما لمسناه في تلك اللوحات السردية الجميلة في وصفه لسمرائه ولذلك السّفاح الأسود، وهذا سببه حضور النموذج التّشكيلي في الوصف هذا الحضور لم يكن اعتباريا بل الرواية نفسها تتطلّبها.

5. رواية حائط المبكى بين مخاتلة السرد وفنية الانفتاح على الفنون التشكيلية:

تعتبر اللّوحات التّشكيلية من بين الفنون التي عليها رواية " حائط المبكى " حيث اعتمد عليها الروائي في تشكيل نصّه الإبداعي، ذلك أنّ إقحام هذه اللوحات الفنّية داخل النصّ الروائي يضيف دينامية سردية، تجعل القارئ يتوقف عندها وي طرح عدّة أسئلة عنها كما يحاول فكّ شفراتها من خلال التأمّل فيها، فتوظيف الروائي لمثل هذه اللوحات بطريقة فنّية مكّن الروائي من الوصول إلى ما يصبو إليه، فهو ينقلنا من لوحة لأخرى ليمتع ناظري القارئ.

حيث إنّها تختصر كلاما كثيرا وما زادها جمالا هو أنّ بطل الرواية هو فنّان تشكيلي موهوب وحبيبته السّمراء هي الأخرى فنّانة وكأنتها مجموعة لوحات داخل معرض، فكل شيء عنده لوحة، مختلفة الأشكال والألوان، ناهيك على أنّ الروائي يبدو عارفا بعوالم الفن وأسراره من خلال ما تمّ ذكره من كبار الرّسامين والخطاطين أمثال بابلو بيكاسو p. picasso ، عمر راسم ، تريستان تزارا tristan tazaral، مارسيل جانكو marcel janko، أوليفر دينيت غروفر oliver dennet grover ، المغربي عبد الله الأطرش، ابن مقلّة، عبده داغر ... فنحن أمام روائي متمكّن يجعل من سرده معرضا لبطله، وبطل الرواية فنّان تشكيلي موهوب، سخّر حياته خدمة للفن متشبع بثقافات الرّسامين العالميين.

يقول: " انصبّ اهتمامي مذ وعيت على التّشكيل، مارست الرّسم والنحت ووقفت طويلا ممتلئا إعجابا أمام روائع الفن العالمي، استمعت إلى الموسيقى تناسب شلالا للبعقرية في كل الكون." (جلاوي، 2020، صفحة 89) فبطل الرواية لا يرى

في حياته إلا الفن والجمال وهذا ما لمسناه في عبقريته في توظيف اللوحات التشكيلية في روايته والأثر الذي ينجم عن ذلك فاللوحة التشكيلية" عندما تصبح بنية روائية تصبح لوحة فضائية بامتياز، فهي بما تملكه من ثقافة حديثة قطعت عبر الصورة الصلة بين السرد والوقائع لذلك لا تعليقات مكتوبة على اللوحة التشكيلية." (النصير، 2022، صفحة 45)

جوهر الرواية مبني على شخصيتين جمعهما الفنّ فهما يعيشانه حدّ النخاع، درساً في مدرسة الفنون الجميلة والتي تعدّ قطب ثقافي بامتياز ساهمت في ترقية الفن التشكيلي الجزائري والحفاظ على عصارة الممارسة الفنيّة الجزائرية ، هذا القطب الثقافي الذي انطلقت منه أحداث الرواية يقول: " في حديقة الفنون الجميلة تناثر الطلبة على كراسيها استعداداً لمغادرتها، وقد بدأت أشعة الشمس تنسحب باتجاه الغروب، من بعيد لمحتها تجلس وحيدة تحتضن محفظتها الزيتية المنسجمة مع لون قميصها وحذاءها، اندفعت إليها بحذر." (جلاوي، 2020، صفحة 09)

وخير دليل على إلمام صاحب الرواية بالفن التشكيلي وخبائاه أنّه لم يكتف بذكر أعلام الفنّ التشكيلي وحسب بل استعار بعض اللوحات الفنيّة المعروفة عالمياً، الأمر الذي يقود القارئ التّلمي الجمالي والاستغراق البصري في ماهية اللوحة وعمقها الدلالي ومن ثمّ ربطها بأحداث الرواية .ومن بين اللوحات التشكيلية التي استحضرها عز الدين جلا وحي لوحة عمر راسم الذي يعدّ من كبار الرّسامين الجزائريين حيث تخرج على يديه نخبة من كبار الرّسامين أمثال مصطفى بن دباغ، محمد تّمّام وذلك في مدرسة تعليم فن التّصوير والزخرفة العربيّة الذي شاركه في تأسيسها شقيقه محمد راسم، وقد برع عمر راسم في رسم الزخرفة والخزف والمنمنمات التي تنتهي إليها اللوحة التي استعان بها الروائي جلا وحي.

وقد عمل عمر راسم على إحياء التراث الجزائري الإسلامي وهذا ما لمسناه في لوحته" حرص فيها على إظهار أدق التفاصيل، فجمع بين منظر عمراني لمسجد

فنية الاسترسال وخصوصية استحضار الفنون التشكيلية في رواية "حائط المبكى"

العاصمة الكبير وأمامه سوق تعجّ بالحركة وقد انخرط فيها كلّ النَّاس على اختلافهم حتى أطفالهم ونساءهم، وفي الخلف يترامى البحر رهوا وقد عَجّ بالسفن، ورغم الدّقة التي حرص عمر راسم على إظهارها في لوحته إلاّ أنّ ألوانه قاتمة حزينة زرقاء وبنية وسوداء مع سحاب مركوم فوق البحر، ولا إضاءة إلا ما انعكس من نور شمس مودع على قباب ومنارات بيضاء." (جلالوجي، 2020، صفحة 84)

تأخذنا اللّوحة إلى حقبة المرابطين حيث "أنشأ يوسف بن تاشفين المسجد الكبير الذي أصبح فيما بعد المسجد الجامع الرئيسي لمدينة الجزائر وقد تحدثنا عن ذلك الجامع ووقفنا عند خطوطه البسيطة الواضحة التي تترك في نفس زائر أثر لا يمعى." (والكتاب، 2000، صفحة 140)

فالعودة إلى تلك الحقبة تعكس أصالة الماضي الإسلامي وهذا ما أحست به السمراء الجميلة وهي تستعيد طفولتها في حي الحمري أحد الأحياء الشعبية بوهران هذا الأخير الذي لها فيه ذكريات أيام الصبا وبراءته فالفرع دائما يحنّ إلى أصله.

ثمّ يستحضر عز الدين جلا وحي لوحة "الغورنيكا guernica" هذه اللّوحة التي جعلت صاحبها بيكاسو يرسمها على هذه الشّاكلة نظرا للأحداث التّاريخية التي ألهمته والمتمثلة في إبادة القرية الاسبانية مخلدا بذلك ذكراها على مرّ الزمن ومن ثمّ انتصارها على الجنرال فرانكو والقوة الفاشية المتحدة مع الألمان وقد عكس بيكاسو في لوحته "قسوة الحرب وبشاعتها والخراب الناتج عنها في تكوين فنيّ تملأه الرّموز من رأس ثور، لحصان معذب، لامرأة بأذرع ممدودة، إلى غير ذلك من الرموز." (الفقي، 2020، صفحة 248)

وهذا ما يأخذنا إلى اللّوحة التي رآها في مدينة الصويرة وتأثر بإبداعها وعمل على وصفها بطريقة جميلة" لم أر لها مثيل من قبل، أسلوب يتيم، وتفصيل متناهية في الدّقة، عوالم للحلم والخيال، عوالم للغريب والعجيب، يطوح لك إلى أعماق الإنسان الأولى، ذكرتي بنظرية اللاوعي الجمعي ليونغ، هل أراد الفنّان أم يقول ذلك؟

هل أراد أن يقول لنا أنّ كل الذي نحياه في يقظتنا ونومنا إن هو إلا استحضار لعوالم الإنسان الأولى كل شيء يحضر في اللوحة دفعة واحدة: الإنسان والحيوان، الطبيعة والأشياء، الحياة والموت اللذة والألم، التّعاسة والسعادة، الخير والشرّ، كل الألوان تحضر بفطرية مدهشة بوحشانية تلقائية تعبّر عن حرارة الانفعال، بتناغم يحيلك على اللامتهي، يغوص بك بعيداً عن الواقع الكاذب، الواقع الزائف، الواقع الذي توهمناه فوقنا أسراه." (جلاوجي، 2020، صفحة 65)

فهذه اللوحة الفنيّة للمغربي عبد الله الأطرش تفكره بلوحة بيكاسو الغورنيكا ولكن ما الذي يجمع هاتين اللّوحتين؟ يبدو أنّ القاسم المشترك بينهما هو العذاب الذي يسببه الإنسان لأخيه الإنسان هذه الثنائيات الضدية من (الحياة والموت، الإنسان والحيوان، التّعاسة والسعادة الخير والشرّ..) تعكس له قسوة الحرب وبشاعتها والخراب الذي ينجم عنها فقد ركّز كلاهما على تبيان المأساة التي يعيشها..

ثمّ يواصل الرّوائي استعارة اللّوحات الفنيّة وهذه المرة مع لوحة الفنّان أوليفر دينيت " oliver dennet grover اخترت لوحة فتاة من الشرق للفنّان العالمي أوليفر دينيت غروفر وهي تغرق نرجسيّتها في صفحة نحاسية اتخذتها مرآة لها." (جلاوجي، 2020، صفحة 59). هذه اللوحة اختارها ليّزّن بها بيته الذي يكفل كفل والد السمراء باختياره ودفّع كرائه فسمرائه في نظره أحلى من فتاة أوليفر " رأيتها أحلى من فتاة أوليفر دينيت الحاملة، تقوس أشدّ في الحاجبين، وامتداد في الرقبة وحوار في العينين، وامتداد عجيب في الذقن وثنية مدهشة في أسفل الوجنتين، وأسنان ضاحكة راقصة، ثمّ روح شباب تسري في كل مكان، تفيض من كل جارحة." (جلاوجي، 2020، صفحة 102)

فنحن إزاء لوحة فنيّة سردية برع الروائي في تشكيلها ومباهاته بها اتجاه فتاة أوليفر دينيت يضيف الكاتب " وقد تبرجت عن سحر الشرق بكل ما فيه من تحف فنيّة، أقواس وأعمدة مرمية، أباريق نحاسية زراب وفساتين وحلي ساهرة، وجمال

فنية الاسترسال وخصوصية استحضار الفنون التشكيلية في رواية "حائط المبكى"

أنثوي مدهش". (جلاوي، 2020، صفحة 102) هذا الوصف الرائع ما هو إلا دليل على إعجاب الغرب بحضارته وثوابته. كما استحضر الروائي عز الدين جلاوي لوحة الفنّان العالمي مارسيل جانكو وهي تنتمي إلى فن الدادائية التي ظهرت سنة 1916 من خلال التقاء مجموعة من الشباب من أبرزهم تريستان تزارا الروماني مارسيل جانكو الألماني، وهيغو بال الفرنسي.

واتفقوا على أن يشكّلوا حركة أدبية وفتية اختاروا اسمها بالصدفة و" وقد تجسدت مبادئ الحركة في ميثاق الدادائية 1918 وهو يرفض كل التّظريات العقلية السابقة..... إنّ لدينا عددا كافيا من الأكاديميين من أنصار المستقبلية والتكعيبية وهم أشبه ما يكونون بمعمل لتغليف الأفكار، هل ننتج الفن لكي نجني الأموال، أو لكي نغازل رقة الشعور البرجوازي المرهف، إنّنا نلقي بالمداد في الأرض الخصبة ولنا الحقّ في أن نحتج، لأنّنا عانينا الارتعاش واليقظة." (الموسى، 2008، صفحة 82)

وقد وظّف الروائي هذه الدادائية محاكاة لوالده العسكري المعروف بالإنجليزية والغطرسة حيث أنّه كان صارم الملامح لا يحدثه أحد ولا يكاد يكلمه أحد ولم يسلم من هذه الصرامة حتى زوجته التي كان يكلمها هي الأخرى برسومية وكأنه في ثكنة عسكرية تحكمها القوانين، حيث كانت تبرر هذه الطباع وترجعها للوظيفة العسكرية يقول " حلمت ليلا أنّي عثرت على لوحة سريالية بديعة، بها صورة والدي مدججا بالنّياشين، يزيّن رقبته عقد يقطر دما، وكأنّ رجله ملتصقة بأعلى كتفه يرتفع فخذه إلى الأعلى، وتلتني ساقه فوق رأسه، لتتدلى قدمه على كتفه الأخرى تبدي ملامحه تقززا شديدا، لعلها من رائحة حذاءه العسكري." (جلاوي، 2020، صفحة 33).

فتخيّل والده بهذا المنظر الموحش يوحي بالهوة التي تفصل الأب عن ابنه ناجمة عن الصرامة التي كان يتعامل بها داخل البيت فهو لا يتذكر حنان الأبوة التي يحتاجها أي إنسان. إنّ توظيف هذه اللوحات الفنية أعطى إضافة هامة للرواية

ذلك أنّها أقرب للعمل الروائي وكأَنَّها تحاكي نفسية البطل وظروف حياته التي عاشها، هذه اللوحات تجعلك تطلق الخيال في ربطها مع أحداث الرواية، حيث أثبتت هذه الأخيرة تفرداها في الانفتاح على فن الرّسم.

6. خاتمة:

من خلال دراستنا يتبيّن لنا أن الرواية جنس أدبي عابر للأجناس وذلك لقدرتها الكبيرة على الانفتاح على الأجناس الأخرى ورواية حائط الميكي للمبدع عز الدين جلا وحي خير دليل على ذلك إذ نجد. فن الرّسم قد انصهر في بوتقتها ذلك أنّ الرواية فن تشييد فضائي مثله مثل الرسومات فالروائي يصور لنا شخصيات الرواية حتّى نحس بأنّ المشهد قد تحول إلى لوحة والعكس، لدرجة أنّه يصل الأمر بالروائي إلى أن تتحول اللوحة الفنّيّة في روايته إلى بنية ثانوية للرواية.

فإمام الروائي بمبادئ الرّسم لدرجة أنّه أعطى إضافة كبيرة للرواية وذلك من خلال استعارة التّكعيبية طريقة للسرد في تشكيل نصّه الإبداعي، هذا الاتجاه الفنّي الذي جعل من صاحبه بيكاسو فنّانا متميّزا، فإقحام الروائي لمجموعة اللوحات الفنية العالمية مثل لوحة الغورنيكا و لوحة عمر راسم..... يجعل القارئ ينشغل بالتأمّل فيها كما تجعله يطرح أسئلة حول صلتهما بأحداث الرواية. فالمتأمّل لهذا الإبداع تحس بأنّ الروائي عز الدين جلا وحي كان رسّاما بارعا قبل أن يطرق كتابة فن الرواية، حضور فن الرّسم في روايته لم يكن اعتباطيا إنّما هو تناغم داخلي تطلبته الرواية والروائي، فنجد الروائي أحيانا يعمد إلى إزهار الأشياء بدلا من الحكي، ذلك أنّ اللوحة الفنّيّة عندما تصبح بنية روائية تصبح لوحة فضائيّة بامتياز.

7. قائمة المراجع :

- أسامة الفقي. (2020). التفكير بالألوان. مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة دط.
- الطراونة سوزان حماد. (2023). تداخل الأجناس الأدبية في الشعر العربي الحديث، عمان، الأردن، دار الخليج للنشر والتوزيع.
- رمضان هاني إسماعيل. (2020). الأدب العربي الحديث تجليات وجدليات أنقرة، دط، uzun dijital.
- سهام السامرائي. (2016). العتبات النصية في رواية الأجيال العربية. عمان الأردن، دط، دار غيداء.
- صبحة أحمد العلقم، (دت). تداخل الأجناس الأدبية في الرواية العربية عمان، الأردن، طبع بدعم من وزارة الثقافة.
- عز الدين جلاوجي، (2020). حائط المبكى، الجزائر، منشورات المنتهى، دط.
- محمد فتحي الحبورى. (2016). التوظيف الفني في الشعر العربي. العراق دار عيلاء، ط 1.
- مصطفى عادل. (2017). دلالة الشكل دراسة في الاستطيقا الشكلية وقراءة في كتاب الفن. المملكة المتحدة دط، مؤسسة هنداوي.
- مؤتمر فيلادلفيا الدولي، (2016). التاسع عشر، المرأة التجليات وآفاق المستقبل. منشورات جامعة فيلا، دط. عمان، الأردن.
- نخبة من العلماء والكتاب. (2000). المساجد مشاهد من العمارة الإسلامية، وكالة الصحافة العربية، دط.
- نهاد الموسى وآخرون. (2008). المنجزات العلمية والإنسانية في القرن العشرين (الأدب والتقد+ الفنون). ط 1، مؤسسة عبد الحميد شومان.
- ياسين النصير. (2022). ما يخفيه النص ، دار نينوى، دمشق، سوريا، ط 1.